ظهور البربر بشمال أفريقية

الأستاذ محمد المختار العرباوي

تونس

العصر الجغرافي الحديث وظهور البربر:

تميّز العصر الحجري الحديث(*) في منطقة المغرب العربي بوجود الجماعات البربرية وبانتشارها على نطاق واسع، من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي، وهذا معروف للجميع منذ مجيء الفينيقيين(**) في القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد.

ويهمّنا هنا وجودهم قبل هذا التاريخ، وهو ما سنحاول بحثه لمعرفة صلتهم بالمنطقة وزمن ظهورهم بها، ولا غنى لنا في هذا الموضوع عن الوثائق المصرية التي

(*) هو المرحلة الأخيرة من العصور الحجرية. تميّز بتطورات كبرى لم يسبق لها مثيل، ففيه اهتدى الإنسان لأول مرّة إلى العمل الفلاحي وتربية الحيوانات ممّا مكّنه من الانتقال من مرحلة جمع القوت إلى إنتاجه. وأحدث هذا كلّه انقلاباً في كامل مقومات الحياة الاجتماعية. فتغيّر وضع الأسرة وظهور العمران والاستقرار وتطورت معارف إنسان هذا العصر بشكل كبير، فتوّصل إلى تقنيات جديدة في صناعات الحجارة والعظام. (قادومات وأدوات المهرس والدرس والعزق...) أملتها تلك التحولات الاقتصادية في مجال الفلاحة وتربية الحيوانات. وكانت صناعة الفخّار من أهم التطورات الثقافية في هذه المرحلة (تخزين الطعام، الشراب...). ويجمع علماء ما قبل التاريخ على أن أقدم مكان انبثق فيه العصر الحجري الحديث هو الشرق الأدنى في الفترة ما بين ١٠,٠٠٠ و ٨٠٠٠ سنة ق. م. وهو أكمل العصور الحجرية لاشتماله على كل العناصر التي يعرف بها هذا العصر، ويقال إنه ظهر في الشرق الأقصى في حدود ٣٠٠٠ق.م وفي أمريكة الوسطى في حدود ١٠٠٠سنة ق.م. ومن هذه المراكز انتقل إلى أصقاع المعمورة الأخرى (طه باقر في دراسته: عصور ما قبل التاريخ في ليبيا، انظر ليبيا في التاريخ ص ٣١، كما ذكر هذا في كتابه **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج١، ص ٢٠٢-١٩٨٦، ظهر سنة ١٩٥١).

(**) هم كنعانيو الساحل الشامي الذي أطلق عليهم الإغريق اسم "فينيقيين" اعتباراً من هوميروس (الأوديسية) فهزيودوس فهرودوتس إلخ... (رئاسة التحرير).

انفردت في الفترة الطويلة السابقة للفينيقيين بمعلومات هامّة حول جماعات البربر القديمة (اللوبيون) ويمكن حوصلة هذه الوثائق على النحو التالي:

أولاً: وثائق غير مصحوبة بنصوص كتابية تعود إلى النصف الثاني من الألفية الرابعة قبل الميلاد أي إلى ما قبل الأسرات وفي بداية (الأسرة الفرعونية الأولى في ٣٢٠٠ق.م)، وهي عبارة عن رسوم وإشارات لجأ إليها المصريون للتعبير عن وقائع معيّنة ومن هذه الوثائق:

١-مقبض سكّين جبل العرق المصنوع من العاج، به يشهد ضمّ مجموعة من الرجال، لهم خصلة من الشعر على شكل ضفيرة، يلبسون كيس العورة ويشبهون في أوصافهم العامّة ما رسم على لوحات أخرى.

٢-لوحة الصيد (مصالي الأسود)، التي رسم فيها عدد من الرجال يحملون الأقواس والحراب وعصيّ الرماية وحولهم حيوانات كثيرة للصيد[1]، ويضعون "الريش في شعورهم ويرتدون كيس العورة ولهم ذيول تتدلّى من قمصانهم القصيرة"[2].

٣-لوحة التوحيد: وهي لوحة الملك "نعرمر" أو "نارمر"، من ملوك الأسرة الفرعونية الأولى ٣٢٠٠-٢٩٠٠ق.م، الحاكمة في الجنوب (مصر العليا)[*].

قام هذا الملك المؤسّس الحقيقي لسلسلة أسر الفرعونية بتوحيد شطري مصر واتّخذ من "ممفيس" عاصمة له بالقرب من المنطقتين، وصوّرت اللّوحة انتصاره على سكّان الوجه القبلي (مصر السفلى) وكان الأشخاص المرسومون عليها، لهم نفس السمات والعلامات المذكورة سابقاً.

(*) ترجّح بعض المراجع أن ملوك هذه الأسرة الأولى في العصر الباكر كانوا ينتمون إلى جنس أجنبي -غزا مصر وفرض سيطرته عليها. أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي- الاقتصادي، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٩- وهذا الجنس الأجنبي من الجزيرة العربية.

وخصلة الشعر وكيس العورة، وحمل الريش في الرؤوس، والذيول المتدلّية، من العلامات التي عُرف بها اللوبيون القدامى، ووجودها في تلك الوثائق دليل على أنهم المعنيّون بتلك العلامات.

وقد أثار هذا جدلاً بين الباحثين إلاّ أنّ ما جاء في هذه الوثائق يُعدّ في نظرهم من أقدم الشواهد المشيرة إلى اللوبيين في ذلك العهد، لذا علّق "برستد" على لوحة التوحيد قائلاً: نعرمر ينتصر على اللوبيين[٣].

ثانياً: وثائق ذات رموز ونصوص كتابية وأهميّتها تكمن في أنّها زوّدتنا بأقدم الأسماء للجماعات التي أُطلق عليها اسم "اللوبيين" في الأول من، ثمّ البربر بعد ذلك، ونرتّبها بحسب أقدميتها كما يلي:

١-لوحة "التحنو" وهي من "الشست" عثر عليها بمقبرة "وازي" الملك الرابع في الأسرة الأولى، محفوظة حالياً بمتحف القاهرة وينسبها "هولشر" Holscher إلى الملك العقرب[٤].

وبهذا اللّوح رمز أو علامة قرأها المختصّون على أنها علام هيروغليفية تعني "التحنو" ولذا سمّي هذا اللّوح بهذا الاسم.

٢-رأس دبوس: وهو عبارة عن أسطوانة عاجية، عُثر عليه في "هيراكونبوليس" (الكوم الأحمر شمال أدفو)، يعود إلى عهد الملك "نعرمر" (٣٠٠٠ق.م) رُسِمَت عليه أيضاً علامة (التحنو) الهيروغليفية.

٣-لوح آخر قريب من اللّوح السابق، وهو عبارة عن أسطوانة من سنّ فيل نُقش عليه اسم الملك "نعرمر"، وأمامه أعداء مكبّلون في الأغلال نُقشت عليهم علامة "التحنو" الهيروغليفية.

٤-حجر "بالرمو" سُمّي بذلك لوجوده ببالرمو بصقلية، وهو حجر من :الديوريت" دوّن عليه نصّ تضمّن معلومات كثيرة للذين حكموا مصر من البداية حتى الأسرة الخامسة (٢٥٠٠ق.م)، ومن هؤلاء الملك "سنفرو" مؤسّس الأسرة الرابعة الذي يذكر النصّ أنه أسر من التحنو ١١٠ أسير واستولى على ١٣١٠٠ رأس من الماشية والأنعام[٥].

٥-نقش جنائزي على معبد الملك سحورع من الأسرة الخامسة تضمّن معلومات عن "بنية (التحنو) الجسدية وملابسهم[٦].

وتدّل الوثائق الثلاث الأولى على أنّ تاريخ ظهور اسم "التحنو" يعود إلى الثلث الأخير من الألف الرابعة قبل الميلاد، إذ إنّ الملك "نعرمر" كان في حدود ٣٠٠٠ق.م، ومدّة الأسرة الأولى التي منها هذا الملك كانت ما بين ٣٢٠٠ و٢٩٠٠ق.م، وظلّ هذا الاسم يتردّد في الوثائق المصرية حتى عهد الملك "مرنبتاح"، آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وفي عهد رمسيس الثالث مؤسّس الأسرة العشرين من القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وتفيد المعلومات المتوفّرة أن هذه المجموعة كانت تعيش في العصور التاريخية لمصر في المقاطعات الغربية للدلتا وفي منطقة "الفيوم ووادي النطرون ومنطقة مارماريكا"[٧].

وإذا كان هذا واضحاً من الأبحاث المنجزة فإنّ مدى امتدادهم نحو الغرب ليس جليّاً، وتقديرات الدارسين مختلفة، بعضها تجعلهم منتشرين عموماً من غرب وادي النيل إلى الجبل الأخضر[٨]. وقال عنهم "جيان دايزانج": "وقد سكنوا الصحراء الليبية وواحتها خلال الألف الثالثة[٩].

٦-"نص أوني" حاكم الجنوب ورئيس القوافل في عهد الملك "بيبي الأول" من الأسرة الفرعونية السادسة (حوالي ٢٣٠٠ق.م) المنقوش بمقبرته بأبيدوس، ذكر فيه هذا

الحاكم أنه قاد جيشاً لمحاربة بدو آسية، مؤلّفاً من جماعات تنتمي إلى أقوام مختلفة منها "التحنو".

٧- "نص خرخوف" حاكم الجنوب ورئيس القوافل أيضاً في عهد الملكين "مرنرع" و"بيبي الثاني" من الأسرة السادسة المدوّن على جدران مقبرته في "الفنتين"، جاء فيه أن هذا الحاكم قام بثلاث رحلات إلى بلاد "يام" في عهد ملكه الأول وبرحلة رابعة في عهد ملكه الثاني، وتهمّنا الرحلة الثالثة التي سلك فيها "خرخوف" طريق الواحات. وعندما وصل إلى بلاد "يام" وجد رئيسها ارتحل إلى "التمحو" في الركن الغربي من السماء(*) ليستولي عليها فلحق به وهدّأه وأصلح الأمر معه، وأعلم ملكه بذلك وعاد من هذه الرحلة ومعه ٣٠٠ حمار محمّلة بالبخور والأبنوس وجلود الفهود وغير ذلك[١٠]، وهي رحلة طويلة إذا ما قارناها بالأولى التي استغرقت ٧ أو ٨ أشهر[١١].

وتظهر الوثائق المصرية أنّ مجموعة "التمحو" تمتاز ببياض البشرة وزرقة العيون والشعر الضارب إلى الشقرة في حين أنّ مجموعة "التحنو" تمتاز بسمرة البشرة.

ما زال الباحثون مختلفين في تحديد موقع بلاد "التمحو" وحسب نصّ "خرخوف" فإنّ هذا الأخير انتقل من "النوبة" إلى بلاد "يام"، ومنها إلى بلاد "التمحو"، وفهم من عبارته "في الركن الغربي من السماء" أي أنّها تقع غرب بلاد "يام"، وإذا اعتمدنا هذا التأويل فإنّ موقع "التمحو"، يكون غرب الجنوب المصري في ذلك التاريخ.

ويرى البعض أنّ قبائل "التاما"[١٢] الحالية بإقليم "دارفور" بالشمال الغربي للسودان من بقايا قبائل "التمحو" القديمة مستدّلاً على ذلك بتشابه الاسمين وتعرف قبائل "التاما" في الوقت الحاضر بأنّها قبائل عربية.

(*) جملة مقتطفة من النص الهيروغليفي لرحلة خرخوف شائعة في عدد من المصادر.

وإذا ما اعتمدنا أيضاً لون البشرة والعيون والشعر فإننا نجد هذه الصفات في رسوم العصر الحجري الحديث القديمة بتاسيلي بالجزائر وأكاكوس بليبية وكذلك في سكّان برقة ومنطقة سرت، على عهد اليونانيين كما أشار إلى ذلك هيرودوت* في القرن الخامس قبل الميلاد.

وهذا يعني انتشار هذه السلالة ذات البشرة البيضاء والعيون الزرقاء على نطاق واسع، وهو ما جعل "جيان ديزانج" يستنتج أن التمحو هم حقيقة أجداد الليبيين الذين عرفهم الإغريق في برقة[١٣].

ومجموعة "التمحو"، وإن كانت قديمة إلاّ أنّها ظهرت لأوّل مرّة في نصّي "أوني" و"خرخوف" في عهد الأسرة الفرعونية السادسة (٢٤٣٤-٢٢٤٢ق.م)، وظلّ هذا الاسم يتردّد في الوثائق المصرية. من ذلك ما جاء في قصة "سنوهي (سنهايت) أن الملك (امنمحات) الأول مؤسّس الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م)، قد سيّر جيشاً بقيادة ابنه "سنوسرت" لبلاد "التمحو"، ويذكر أن الأسرى الذين عاد بهم ليسوا من هؤلاء وإنّما من "التحنو". ويفهم ممّا جاء في هذه القصّة أنّ مواقع المجموعتين صارت متداخلة ومتجاورة في هذه الفترة.

ويذكر محمد مصطفى بازامه أنّ اسم "التمحو"، ظلّ يردّد بين الفينة والأخرى حتى عهد الدولة الحديثة[١٤]، (١٥٨٢-١٠٨٥ق.م)، وهكذا نصل إلى أن "التنحو" و"التمحو" من الأسماء التي عُرِف بها اللوبيون القدامى.

٨- آنية فخارية من قصر امونحوتب الثالث (١٤٠٨-١٣٧٢ق.م)، جاء فيما كتب عليها اسم "المشواش".

---

* هو هرودوتس أب التاريخ (رئاسة التحرير).

٩-نقش الكرنك للملك "مرنبتاح"، حوالي (١٢٢٧ق.م)، من الأسرة التاسعة عشرة للدولة الحديثة، الذي سجّل فيه انتصاره على اللوبيين ومن تحالف معهم من "شعوب البحر" الذين هجموا على الدلتا للاستقرار بها تخلّصاً من الصحراء ومن أي ضغوط أخرى، وقاد هذا التحالف "مارابي أو مريبي" بن "دد" رئيس قبيلة "الليبو"، وجاء في نصّ الكرنك "أنّ رئيس الليبو الخاسئ مرابي بن دد انقضّ على إقليم تحنو برمته..."(١٥).

من القبائل الليبية المشاركة في هذا التحالف: القهق والمشواش، ومن شعوب البحر الأوروبية، الأقاواشا واللوكا والشردن والتورشا والشكلش.

ويشار لاسم "الليبو" في المصادر المصرية بالحرفين (ر.ب.) ولذا قرأها البعض (الريبو) بالإبقاء على الراء دون إبدالها باللام وذلك راجع إلى عدم التفطّن إلى "أنّ نظام الكتابة المصرية لا يعرف اللام"(١٦)، وأنّ الراء فيها كثيراً ما تنطق لاماً، ولذا فإنّ (ر.ب.) تقرأ (ل.ب.) أي "ليبو" أو (الليبو).

١٠- نقوش رمسيس الثالث (١١٩٨-١١٦٦ق.م)، مؤسّس الأسرة العشرين في الدولة الحديثة، حيث تضمّنت هذه النقوش أنّ رمسيس الثالث ردّ هجمتين قويتين من الغرب عن الدلتا، كانت الأولى متكوّنة من القبائل الليبية: الليبو والسبد، والمشواش بمؤازرة شعوب البحر.

والثانية قامت بها أساساً قبيلة المشواش بتحالف مع قبائل ليبية أخرى منها: الليبو والأسبت والقايقش والشيبت والهسا والبقن، وتعرّض التحنو في هذه المرّة إلى غارة ساحقة دمرتهم تماماً، فجاء في نصوص الحرب الثانية"... انقضّ المشواش على التمحو فأصبحوا رماداً وقد خربّت مدنهم ولم يعد لهم وجود..."(١٧).

وهؤلاء المشواش الذين حاربهم مرنبتاح ورمسيس الثالث هم الذين استقرّوا بمصر بعد ذلك وتمكّن قادتهم من الوصول إلى السلطة وأصبحوا في النهاية ملوك مصر وفراعنتها، فكانوا أصحاب الأسرتين ٢٢ و٢٣.

والمهمّ هنا هو أنّ "الليبو" و"المشواش" اسمان كبيران تقدّمهما لنا الوثائق المصرية بالإضافة إلى الاسمين السابقين: التحنو والتمحو.

ويذهب البغض إلى أنّ هذه الأسماء ليست إعلاماً على أصحابها وإنّما أطلقها المصريون على تلك الجماعات فعُرِفت بها، وهذا غير صحيح بدليل أنّ بعض هذه الأسماء عرف في مصادر أخرى بالاسم نفسه فمثلاً "الليبو":

- ورد في الوثائق الإغريقية القديمة.
- ورد في التوراة (العهد القديم) بهذه الصيغة "لوبي ولوبيم"(*)ثم لا يوجد هناك من الدواعي لجعل المصريين يتخلّون عن أسماء الأقوام المجاورة ويطلقون عليها أسماء أخرى، بدليل أنهم فرّقوا بين الجماعات اللوبية المهاجمة وذكروها في نصوصهم بأسمائها.

ونظراً لأهمية المجموعة اللوبية، فإنّ المصادر المصرية المتعلّقة بالتنظيم الإداري الفرعوني تحدّثت عن المديرية الثالثة من مديريات الوجه البحري، وذكرتها باسم "المديرية الليبية".

وأشار "استرابون" إلى وجود مديرية بهذا الاسم قرب الدلتا[١٨].

(*) وردت في صيغة "لوبي" في سفر أخبار الأيام الثاني، الأصحاح ١٢ الآية ٣ والأصحاح ٦ الآية ٨ وفي سفر دانيال الأصحاح ١١ الآية ٤٣ ووردت بصيغة (لوبيم) في سفر ناحوم الأصحاح ٣٠ الآية ٥، التوراة.

كما ذكرت بعض المصادر الإسلامية شيئاً من هذا القبيل: فقال ابن عبد الحكم: "لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا ينالها النيل"(١٩).

وكرّر ابن خُرْدَاذبة هذا أثناء حديثه عن إجلاء البربر من فلسطين فقال: "حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية فتفرقت هناك"(٢٠).

أمّا إشاعة هذه التسمية وإطلاقها على شمال أفريقية وسكّانه، فهو راجع إلى اليونانيين الذين تعود صلتهم بليبية وشعوبها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ويقال إنّ (هيكتايوس) هو أول من عمّم هذا الاسم وتبعه هيرودوت ومؤرّخو اليونان وجغرافيوهم(٢١). وعن اليونان أخذ الرومان وغيرهم هذه التسمية ذات المعنى المعمّم والراجح أنه انتقل إلى الإغريق عن طريق الفينيقيين(٢٢).

والخلاصة هي أنّ "التحنو" و"الليبو" و"المشواش" هي أسماء بعض الجماعات الليبية القديمة والتي منها ومن غيرها يتألف البربر القدامى.

ويمكن أن نرتّب ظهورها في السجلات المصرية على النحو التالي:

- **التحنو**: ظهروا في الثلث الأخير من الألفية الرابعة قبل الميلاد.
- **التمحو**: ظهروا ي أواسط الألفية الثالثة قبل الميلاد.
- **المشواش**: ظهروا في عهد أمونحوتب الثالث (١٤٠٨-١٣٧٢ق.م).
- **الليبو**: ظهروا في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

ومن غير شكّ، فإنّ وجود هذه الجماعات أسبق من التواريخ المذكورة بكثير بدليل ما أشارت إليه تلك الوثائق الأقدم التي لم تُصحب بنصوص وإشارات كتابية، حيث ميّز الدارسون من خلالها السمات الخاصة بالجماعة الليبية.

وإذا كانت السجلاّت جعلتنا نعرف أنّ بعض أجداد البربر كانوا موجودين منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، فهل يمكن لنا إضافة إلى ما ذكر أن نعرف تاريخهم الأقدم من ذلك؟

ليس أمامنا في هذه الحالة إلاّ وثائق ما قبل التاريخ والمعلومات التي أمكن جمعها من التنقيبات والتحريّات الأثرية، وهذا يدعونا إلى تناول العصر الحجري الحديث في كل من الصحراء وشمال أفريقية لمعرفة المنطقة والصورة التي تمّ بها تعميرها ووجود البربر عليها.

وأوّل ما تجدر الإشارة إليه هو أن العصر الحجري الحديث ظهر في الصحراء أوّلاً، وهي أقدمُ منطقة في القارة الإفريقية كلّها عرفت هذا التحوّل الجديد المتمثّل في تيارات متنوّعة أهمّها في نظر الدارسين ما سمّي (بالعصر الحجري الحديث السوداني)، أو (العصر الحجري ذي التقاليد السودانية)، وأساس هذه التسمية ما لوحظ من تشابه في صناعة الفخّار بالخرطوم (السودان)، وبأمكنة بالهقار (الجزائر)، وفي غيرها من الأماكن الأخرى.

ويفسّر علماء ما قبل التاريخ انتشار هذا التيار عبر الصحراء بأنه ناجم عن هجرة جماعات من السودان، اتّجهت من الشرق إلى الغرب على طول البحيرات الكبرى بالتشاد، حسب هـ. ج. هوغو "لا يبدو أنها تجاوزت الحاشية الشرقية "أوكر" أو أنّها توغّلت في الغابة"[٢٣].

وامتدّت شمالاً حتى جهة الهقار والساوره (وادٍ بصحراء الجزائر)، وفزّان، ولا يوجد ما يدلّ على أنّها تجاوزت حدود هذا المسار، وأصحاب هذا التيار من جنس إفريقي كما تدلّ على ذلك الوثائق البشرية من حيث بروز الفقم (الفكّ المتقدّم) والخيشوم العريض (الأفطس)، وباستطالة السواعد والسيقان"[٢٤].

وهذا التيار يرجع وفق أغلب التقديرات إلى الألف السادسة قبل الميلاد. وهناك من يعود به إلى أقدم من ذلك[٢٥]. والعصر الحجري الحديث الصحراوي عامّة استمرّ إلى حدود ٢٨٠٠ أو ٢٧٠٠ق.م.

أمّا العصر الحجري الحديث في شمال أفريقية، فالمعلومات حوله ما تزال محدودة، وهناك غموض وما يشبه الانقطاع في بعض حلقاته الأمر الذي يدعو إلى الحذر إزاء التأويلات والافتراضات، وخاصة تلك التي تربط بشكل ميكانيكي واعتباطي بين جماعات العصر الحجري الأعلى وبين الجماعات البربرية الأولى (الليبيون القدامى) في العصر الحجري الحديث.

وتحدّث المختصّون عن وجود عدّة تيارات في العصر الحجري الحديث بشمال أفريقية منها القفصي والوهراني المنحدران من الجماعات السابقة، ومنها تيار يظهر بالمناطق المحاذية للساحل الأطلسي[٢٦].

والعصر الحجري الحديث في شمال أفريقية بدأ -في أغلب الاحتمالات- في الألف الرابعة قبل الميلاد، واستمرّ حتى العصر التاريخي للمنطقة (١٢٠٠ق.م) الذي يبدأ بمجيء الفينيقيين، واستمرّ في بعض المناطق الداخلية حتى العصر الروماني.

وعبّر العصر الحجري الحديث في كل من الصحراء وشمال أفريقية عن تطورات جديدة، تمثّلت في حدوث تقنيات جديدة في صناعة الحجارة والعظام وصقلها وفي صناعة الفخار ومظاهر من الحياة الفنية والاجتماعية والاستقرار، ولكن هذا العصر في كلا المنطقتين لم يعرف الفلاحة، ممّا جعله عصراً ضعيفاً محدود الإمكانيات، إلاّ أنّه عرف الرعي في بعض أطواره، فكيف كان ذلك؟

فالعصر الحجري الحديث الصحراوي قبل الألفية الخامسة للميلاد لم يتجاوز في تحوّلاته حدود التطوّرات المذكورة، ولكنه في بداية هذه الألفية عرف الرعي وتربية

الحيوانات (ضأن – ماعز – بقر)، فكيف عرفنا ذلك؟ وبما تمّ تحديد بداية ظهور المجتمع الرعوي في الصحراء؟ توصّلنا إلى ذلك بالاعتماد على:

١- عظام الحيوانات المستأنسة التي عثر عليها في الحفريات.

٢- الرسوم والنقوش التي خلّفها الفنانون الصحراويون في الكهوف وفوق الصخور.

فعظام الحيوانات المستأنسة لم يعثر عليها إلاّ في ركمات الطبقات الفوقية التابعة للعصر الحجري الحديث، وهذا دليل قاطع على أنّ هذه الحيوانات وعملية الرعي لم يظهرا إلاّ في هذا العهد.

وأمّا الرسوم والنقوش فكانت حيوانات من فيلة وزرافات وكركدن وغزلان وثيران وأفراس بحر والنعام وغير ذلك، وقطعان ماشية من غنم وماعز وبقر وحيوانات أهلية كالحصان والجمل.

وهذه الرسوم والنقوش منتشرة على طول الصحراء من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر. فهناك رسوم بجنوب المغرب وبظهر تشيت بموريتانية وبجنوب وهران وبتاسيلي -ناجر (حيث توجد مراكز الرسوم الكبرى، جبارين، صفار، جنات..) بالجزائر، وبفزّان بليبية وبتبستي بين ليبية والتشاد، والنوبة.

وتبيّن دراسات "ف. موري" وغيره أنّ هذه الآثار الفنية تمثّل أطواراً تاريخية متعاقبة ومتباعدة خلّدها فنانون من أجيال مختلفة من سكّان الصحراء، ولم تحدّد بعد بشكل حاسم البداية التاريخية لنشأة هذه الآثار الفنية الصحراوية، بيد أنّ "جراسيوسي Graziosi)"[٢٧]، يرى أنّها لا تسبق الألفية السابعة قبل الميلاد[٢٨].

ومن الدارسين المرموقين الذين ميّزوا الأطوار والمراحل التاريخية المتعاقبة لهذه الرسوم والنقوش، الأستاذ ف. موري[٢٩]، الذي درس مجموعة من الكهوف الطبقية

في إقليم فزّان بهضبة الأكاكوس قرب تبستي اعتماداً على الراديو -كربون ونتائج الحفريات الأثرية -وتوصّل إلى تحديد خمسة أطوار هي كما يلي:

١-نقوش تمثّل حيوانات متوحّشة كبيرة أو الجاموس (حيرم) والأبقار البريّة (Bubalus Antiquus).

٢-فترة الرؤوس المستديرة (Round-Heads).

٣-الفترة الرعوية (Pastor) المتميّزة بوجود صور لقطعان عديدة من الحيوانات الأهلية.

٤-فترة الحصان أو العربة (Chariot) .

٥-فترة الجمل.

ويهمّنا من هذه الأطوار، الطور الثالث المتعلّق بالرعي، فقد درس "موري" رسوماته في عدّة مواقع أهمّها: "وان تلوكات" "وان موهوجياج" "فوزيجيارين" واحتوت ركاملت هذه المواقع على عناصر متنوّعة من مخلّفات الجماعات السابقة.

- ففي "وان موهوجياج" عثر على بقايا ماشية مستأنسة حُدِّد تاريخها بالفترة ما بين ٥٥٠٠-٤٠٠٠ق.م.
- وفي "فوزيجيارين" حُدِّد تاريخ الرواسب العليا والسفلى بـ ٦٠٠٠ق.م.
- وفي "وان تلوكات" حُدِّد تاريخ الرواسب بـ ٤٨٠٠ ق.م[٣٠].

ويعتبر "موري" أنّ الألفية السادسة قبل الميلاد فاصلة بين عهدين: عهد الرؤوس المستديرة وعهد الرعاة. ويفترض " أنّ الانقطاع في التسلسل بين فترة الرؤوس المستديرة والفترة الرعوية لم يكن قصيراً ولم يكن ثقافياً خارجاً عن المجال"[٣١].

وبناء على هذا، فإنّ بداية ظهور الرعي في هذا الجزء من الصحراء يمكن أن يــــردّ إلى منتصف الألف السادسة قبل الميلاد. ويرى "موري" أن هذا الدور الحضــــاري أو "الحلقة الثقافية تبدأ في الاختفاء حوالي الألف الرابعة قبــــل الميـــلاد حســـب تحليـــل Pollen[٣٢]، (علم اللقاح والأبواغ).

وفي الشمال إقليم برقة توصّل "ماكبرني" فـــي تحليلـــه لرســـوبات وطبقـــات كـــهف "هوافطيح" إلى النتائج نفسها، فيقول في الطور السادس من أطوار الكـــهف: "حوالــــي ٧٠٠٠ من الآن (أي ٥٠٠٠ق.م)، وقع تحوّل عميق كبير أثّـــر فـــي حيـــاة الليبيين القدامى، نستطيع اكتشافه في "هوافطيح"، وفي أول مجموعة من الكهوف دُرِسَت مـــن قبل ف. موري بفزّان. ففي كلا الجهتين ظهرت أولى الحيوانات الأهلية وأصبح الناس رعاة عوضاً عن صيادين"[٣٣].

من هم هؤلاء الرعاة؟

يذكر موري أن عصر رسوم الرؤوس المستديرة "مربوط بسكّان شبه زنـــوج"[٣٤]. إذ إنّ أصحابه رسموا بملامح وسمات زنجية، أمّا فترة الرعاة فقد ظهرت فيها معطيـــات جديدة، فقد تغيّر النظام الاجتماعي وتغيّر أسلوب ومحتوى الرسوم، فقد اختفت الرسوم "ذات الشكل البشري والطابع الأسطوري"[٣٥]، وحلّت محلّـــها رســـوم ذات مواضيـــع جديدة مثل "تربية الماشية والتنقّل عليها وحلب البقـــر والأنشـــطة المتنوّعـــة للحيـــاة القبلية[٣٦].

والمهمّ هنا هو أنّ الأشخاص المرسومين بملامح معيّنة ليسوا متزنّجين. ففي هضبـــة الأكاكوس: لوّنت بشرتهم باللون الأصفـــر أو الـــوردي الفـــاتح وتركـــت شـــعورهم بيضاء"[٣٧]، وهو ما دعا البعض إلى ربطهم بمجموعة "التمحو" ذات البشرة البيضـــاء والشعر الأشقر. وقد ربط هـــؤلاء الرعـــاة بمجموعـــة البحـــر الأبيـــض المتوســـط البيضاء"[٣٨].

وكلّ هذا يؤكّد أنّ الرعاة ما هم إلاّ أقوام مهاجرة قدمت إلى المنطقـة وأدخلتـها لأوّل مرّة في الحضارة الرعوية، ثم إنّ عملية استئناس الحيوانات ليست ظاهرة محليّـة ولا يمكن أيضاً في ظلّ المعطيات المعروفة إلاّ أن تكون مسـتوردة، ذلـك أنّ الضـأن والماعز والبقر المربّى لا توجد في القارة الأفريقية كلّها، وإنّما عُرفت في الجزيـرة العربية والشرق الأدنى، وهذا الأمر معروف ولا جدال فيه بين العلماء.

وقد أكّد ماكبرني على أن الحيوانات المستأنسة في العصر الحجري الحديـث ليسـت أصلية بالمنطقة ولذا يقول: "على كلّ حال فلا الأغنام ولا البقـر يمكـن أن تتكـوّن وتتطوّر من الحيوانات المتوحّشة المحلّية بأفريقية الشمالية"(*) وتحدّث م.ك. شملا علـى أنّ هناك "ظاهرة قارّة في تعمير الصحراء في العصر الحجري الحديث. وهي الهجانة بقطبيها: السود من جهة، والبيض من جهة أخرى، وأصلهما نصف شرقي ويجمعـون تحت اسم "أهل حوض البحر المتوسّط"(٣٩)، والإضافة التي تهمّنا في ما قاله "شـملا" هي أنّ العنصر الأبيض شرقي وأنّ وجوده بالصحراء كان نتيجة الهجرة.

ونستخلص من كل ما تقدّم أنّ هؤلاء الرعاة ما هم في الحقيقة إلاّ الجماعات البربريـة الأولى التي أطلق عليها في الأول اسم (اللوبيون) تحولّوا فـي مرحلـة تالية مـن الصحراء إلى شمال أفريقية، وهذا واضح منذ الألف الرابعة قبل الميلاد بسبب حـدّة الجفاف المتزايدة التي لاحظها موري عندما قال:

(*) ماكبرني: المصدر السابق، ص٦، فالأغنام والبقر (الصالحة للتأهيل) لا توجد في القارة الأفريقية وإنما عرفـت في الجزيرة العربية والشرق الأدنى عامة. وفي هذا الصدد يقول رولان بورتير وجاك بارو اللذان يعتبران أفريقية في ما يخصّ هذه الحيوانات الأهلية مدينة إلى العالم الخارجي الشرقي "فيبدو جليا أنها كانت مدينة له فيما يخـصّ حيواناتها الأهلية"، ويردفان: "إنّ تربية الحيوانات لم تتطوّر مستقلّة في أفريقية جنوب الصحراء التي لم يكن فيـها للحيوانات أي سلف ممكن (للبقر والماعز والغنم المؤهلة)، ص٧١٤، من دراسة بعنوان: **"بداية التقنيات الفلاحيـة وتطوّرها وانتشارها"**. انظر تاريخ أفريقية العام، ج١، ص٦٠٤.

"فالتحوّلات المناخية في فترة ما بين ١٠ و ٤ آلاف سنة الماضية حولت مساحات عريضة إلى مناطق جافّة وقفراء ممّا جعل السكّان يغادرونها[٤٠]. إمّا شرقاً في اتجاه مصر وإمّا شمالاً في اتجاه أقطار المغرب العربي الثلاثة. وظلّ الجفاف يتزايد على مرّ الأيام حتى بلغ التصحّر ذروته و وصار أمراً مقضياً حوالي ١٠٠٠ اسنة قبل الميلاد، وكان له دوره في الضغط على الجماعات الرعوية التي انتشرت في أرجاء شمال أفريقية من قبل أن يأتي الفينيقيون بمدّة طويلة.

وبحلول الحضارة الرعوية في سائر أنحاء المنطقة لمع اسم "الشاوية" كتعبير أصيل عن هذه الحضارة منذ أطوارها الأولى، وكدليل لغوي وثقافي على انتمائها الشرقي الأصيل.

فهذا الاسم لا يعني قبيلة معيّنة كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنّما هو اسم بمثابة المصطلح يطلق عامّة على من يرعى الشاة ويختصّ بتربيتها. وهذا الاسم منتشر في المشرق العربي أيضاً منذ عهود قديمة، وما يزال موجوداً إلى الآن بصحراء الشام وجهات في العراق وجنوب الجزيرة العربية، مثل سلطنة عُمان، وكذلك الحال في منطقة المغرب العربي، إذ ما تزال جماعات عريضة تحمل هذا الاسم في غربي وشرقي المغرب الأقصى، وفي شرق الجزائر يطلق عليهم "الشاوية" فهو اسم من إرث حضاري قديم توارثته الأحفاد عن الأجداد الأوائل، وأن الذي ساعد على الاحتفاظ به في المشرق والمغرب العربيين، الممارسة المتواصلة لمهنة الرعي حتى بعد أن عرفت المنطقة الفلاحة في وقت متأخّر.

ولا يغيب عن البال أن هذا الاسم، الشاوية، العريق في الجماعات البربرية، هو اسم عربي الأصل صياغة ومدلولاً، منحدر من اللغة العربية القديمة تلك التي يطلق عليها خطأ أو عناداً "السامية".

والخلاصة: إنّ الجماعات البربرية الأولى الرعوية وصلت إلـــى الصحـــراء الليبيـــة وانتشرت فيها في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد، ثم تحولّت إلى المناطق الواقعـــة شمال الصحراء، كما هو واضح من تحوّلات الظروف المناخية في الألف الرابعة قبل الميلاد. وبهذا نكون قد توصلّنا إلى تحديد تاريخ ظهور البربر في شمال أفريقية، وهو أمر لا يرتاح له من يكذبون على التاريخ، ومن سوّلت لهم إقليميتهم المتخلّفة الحديـــث عن الإنسان التونسي الأوّل وعصوره الحجرية القديمة وغير ذلك من الترّهات.

الهوامش

(١) فوزي فيهم جاد الله: **مسائل في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت**، الــــوارد في (ليبيا في التاريخ) منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، ١٩٦٨م.

(٢) د. فوزي فيهم جاد الله: **مسائل في مصادر**...المصدر نفسه، ص ٥١.

(٣) د. فوزي فيهم جاد الله: **مسائل في مصادر**...المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) جيان ديزتمج، **البربر الأصليون**، الوارد في تاريخ أفريقية العام، ج٢، ص٤٣٩.

(٥) د. فوزي فيهم جاد الله: **مسائل في مصادر**...المصدر المذكور سابقاً، ص ٦٢.

(٦) جيان ديزتمج، **البربر الأصليون**، المصدر المذكور سابقاً، ج٢،ص ٤٣٩.

(٧) د. فوزي فيهم جاد الله: **مسائل في مصادر**...المصدر المذكور سابقاً، ص ٥٩.

(٨) بازامه مصطفى، **تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ**، منشـــورات الجامعـــة الليبية،بنغاوي، ١٩٧٣، ص٥٧.

(٩) جيان ديزتمج، **البربر الأصليون**، المصدر المذكور سابقاً، ج٢،ص ٤٣٩.

(١٠) نجم الدين محمد الشريف، **النوبة قبل نباتا**، الوارد في (تاريخ أفريقية العام)، ج٢، ص٢٥٣، مصدر تقدّم ذكره.

(١١) نجم الدين، **النوبة**......، المصدر نفسه، ص٢٥٣.

(١٢) د. فوزي فيهم جاد الله: **مسائل في مصادر**...المصدر المذكور سابقاً،ص٦٤.

(١٣) **البربر الأصليون**، المصدر المذكور سابقاً، ص ٤٣٩.

(١٤) **تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ**، المصـــــدر المذكــور ســـابقاً، ج١، ص٥٣.

(١٥) بازامه مصطفى، **تاريخ ليبيا**... المصدر نفسه، ص ٥٦، انظر أيضـــاً فوزي فيهم، **مسائل في مصادر**...، ص ٥٩، هامش ٢.

(١٦) ص١٢٢ **Rossler: Der Semitisch charakter der lubysche, Sprache** in Z A, Leipzig- 122, 1952، **(السمات السامية في اللغة اللوبية)**.

(١٧) د. فوزي فيهم جاد الله: **مسائل في مصادر**...المصدر المذكور ســـــابقاً، ص ٥٩، هامش ٢.

(١٨) د. مصطفى كمال عبد العليم، **ليبيون وإغريق من برقة** (ليبيا في التـــاريخ)، ص ١٠١، مصدر تقدّم ذكره.

(١٩) **فتوح أفريقية والأندلس**، حقّقه عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرســـــة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٨.

(٢٠) **المسالك والممالك**، لندن، ١٨٨٩، ص ٩١، Luuni Batavorum-Apud, EJ, Brill.

(٢١) د. مصطفى كمال عبد العليم، **ليبيون وإغريق**......المصدر المذكور ســابقاً، ص ١٠٢.

(٢٢) بازامه مصطفى، **تاريخ ليبيا**....، المصدر المذكور سابقاً، ص ٥٩.

(٢٣) **الصحراء في ما قبل التاريخ**، الوارد في (**تاريخ أفريقية العـــام**)، ج١، ص ٦٠٥، مصدر تقدّم ذكره.

(٢٤) ك، ابراهيمي، **تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر**، ترجمة محمد البشير الشنيتي ورشيد بوروبيه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١٢٠.

(٢٥) ابراهيمي، **تمهيد حول**...، المصدر نفسه، ص ١١٨، ويذكر أن محتويات موقع "أمكني" تعود إلى ٧٦٠٠ق.م.

(٢٦) ل. بالو، **أفريقية الشمالية ما قبل التاريخ**، الوارد في (**تاريخ أفريقية العام**)، ج١، ص ٥٩٠، مصدر تقدّم ذكره.

(٢٧) بازامه مصطفى، **تاريخ ليبيا**....، المصدر المذكور سابقاً، ص ١٦٧.

(٢٨) ج. كي. زيريو، **الفن الإغريقي في ما قبل التاريخ**، الوارد ذكره في (**تاريخ أفريقية العام**)، ج١، ص ٦٦٩، مصدر تقدّم ذكره.

(29) **Fabrizio, Mori: Perhistoric Saharan Art cultures in the light of discoveries the Acacus Massif.** (Libyan Sahara).

(الفن وحضارات ما قبل التاريخ في الصحراء على ضوء اكتشافات هضبة الأكاكوس، الصحراء الليبية) الوارد في (**ليبيا في التاريخ**)، ص ٦، مصدر متقدّم.

(٣٠) أخذت هذه الأسماء والتواريخ المصاحبة لها من دراسة موري السابقة، ص ٣٤.

(٣١) **Mori ,.......Perhistoric**، المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٣٢) **Mori ,.......Perhistoric**، المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٣٣) (دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ)، **C.B.M. Meburney/ Libyan role in prehistory**، الوارد في (ليبيا في التاريخ)، ص ٦، مصدر تقدّم ذكره.

(٣٤) **Mori ,.......Perhistoric** ، المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٣٥) Mori ...., Perhistoric، المصدر نفسه،.ص ٣٨.

(٣٦) Mori ...., Perhistoric، المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٣٧) بازامه مصطفى، **تاريخ ليبيا**....، المصدر المذكور سابقاً،ج١، ص ١٠٥.

(٣٨) Mori ...., Perhistoric، المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٣٩) الصحراء في ما قبل التاريخ، المصدر المذكور سابقاً، ج١، ص ٦٠٤.

(٤٠) Mori ...., Perhistoric، المصدر نفسه، ص ٣١.